الفصل الأول

الاتجاهات التاريخية

obeikandl.com

الاتجاهات التاريخية:

يتمثل هذا الاتجاه عند من وصلوا الآثار الأدبية بسياقاتها التاريخية أو الاجتماعية أو النفسية. ولقد ركز أصحاب هذا الاتجاه في قراءتهم للعمل الأدبي علي مبدعه ،وذلك بتتبع سيرته وسيرة عصره فأخذوا يجرون تحليلاتهم علي نفسيته وعقده حتي جعلوا من النص "وثيقة تاريخية تدل علي زمنها أو نفسية تشرح مغاليق نفس مبدعها " (٧)

وقد بالغ بعضهم في دراسته للنص الأدبي انطلاقا من مبدعه إلي درجة اعتبار قصدية الكاتب شرطا أساسيا لتفسير ما أنتجه من نصوص ولقد كتب هيرتش يقول"إنه لا يمكننا أن نتكلم عن تفسير قاطع علي الإطلاق إلا إذا افترضنا نية للمؤلف لتحكم ذلك التفسير " (٨)

وفي الحقيقة فإن التحولات التاريخية –قبل ذلك – كانت قد وجدت طريقها إلي الأدب عبر مفهومي : الطبيعة والتقليد في نظرية المحاكاة عند الكلاسيكيين وذلك ما ثار عليه الرومانسيين حيث أصبح مفهوم التقليد في الثورة علي الكلاسيكية عند الرومانسيين علي وجه الخصوص استلهاما للأفكار عند القدماء، ولم يعد اقتفاء لهم ،وذلك ما يفرضه ذوق العصر محكوما بالتغير والتحول التاريخيين ، كما أن مفهوم الطبيعة انتقل من الاقتصار علي الحسن التام والبهاء الكامل إلي القول بفكرة عالمية العقل البشري التي تسربت عبرها حركة التاريخ إلي البناء الكلاسيكي فحطمت قواعده وأسسه ،ومن الحق أن يقال إنه "فيما يتصل بالمجال النقدي علي وجه الخصوص نجد أن الإطار الفكري الذي انبثق

داخله هذا الوعي التاريخي تمثل علي وجه التحديد في المدرسة الرومانسية " (٩) التى جاءت لتؤسس مبادىء تقوم علي نقد نظرية المحاكاة ، "وذلك حين اعتني الرومنطيقيون بالإنشاء الأدبي فوصلوا بينه وبين منابعه إلا أنهم خرجوا في ذلك ، علي الترسيمة القديمة خروجا ظاهرا،فلقد حذفوا مفهوم " الطبيعة " اليوناني واستبدلوا به " الفرد "مفهوما جديدا ذا أبعاد انفعالية وحذفوا مفهوم المحاكاة وأحلوا محله مفهوم الخلق " (١٠)

ولقد نزل مفهوم الخلق بالآثار الأدبية إلي معترك التحولات التاريخية حيث كان مفهوم الخلق في عرف الرومانسيين "يصدر عن القلب وهو مطرد أما وسائل الأداء وشروط التعبير فتخضع لحركة التاريخ"(١١) ويرجع الربط بين الخلق الأدبي والتاريخ عند الرومانسيين في الأساس إلي إظهار نوع من المقاومة لسلطة السلف ،حيث يؤدي الأخذ بالتاريخية إلى مشروعية الخروج علي الكلاسيكية (١٢) ونستطيع أن نخلص من ذلك إلي أن الرومانسية هي التي بدأت التوجه إلي التمثيل المنتظم للتاريخ باعتباره تعبيرا عن الفرد والمجتمع ، وبالتالي فهو يرتبط بهذه الجدلية التي تعكس علاقة الفرد بالمجتمع وباعتباره – وهذا هو الأهم – تعبيرا عن الحياة في تدفقها وانهمارها (١٣) وقد ترتب علي ذلك –كمردود لإحلال الإنشاء الأدبي في معترك التاريخ – أن ظهر في الأعمال النقدية الأخذ بالتنظيم والتقسيم والتصنيف أسوة بالعلوم الطبيعية نتيجة لنمو حركة البحث العلمي* والأكاديمي في الأوساط الثقافية والبيئات الجامعية علي حد سواء ،وكان الاهتمام بالتوثيق ورصد أكبر عدد من البيانات وعدم قبول

الأشياء بوصفها بداهات ،وكذا الاعتماد علي العقل والبرهان ،ثم التعامل مع النصوص من منطلق بعينه يتمثل في درجة نسبتها إلي أصحابها وتوثيقها ودراسة المصادر الأدبية ،وكذا علاقة التأثير والتأثر بين الأدباء المختلفين محليا وعالميا وكل ذلك كان يمثل الترجمة العملية للنزعة التاريخية في دراسة الأدب ونقده(١٤).

وهكذا " انبثقت نظرية التعبير في الفن من كفاح الرومانتيكيين ضد الكلاسيكية الجديدة التي سيطرت علي القرن الثامن عشر والتي كانت استمرارا لنظرية المحاكاة القديمة وفي عبارة الشاعر الإنجليزي وليم وردزورث (١٧٧٠-١٨٥٠) الشهيرة " الشعر فيض تلقائي لمشاعر قوية " ما يقدم جانبا من جوانب الأساس الفكري لهذه النظرية (١٥) ولكن أهم ما يعنينا أن "المذهب الرومانسي الذي أزاح كل القيم التقليدية المطلقة -سلطة الدولة وسلطة الأب وسلطة الأعراف الاجتماعية ...الخ -ليقيم علي أنقاضها مطلقا آخر وهو شخصية الفرد ، أبي إلا أن يكون النقد تعبيرا عن الشخصية كالشعر والرواية " (١٦)؛ لذلك كان احتفاء الرومانسيين بالتعبير الإبداعي للفرد " ضمن الاحتفاء بالفرد الخلاق الذي يصنع التاريخ علي عينه ويقود الجماعة بقدراته الاستثنائية، وقد أراد هؤلاء جميعا أن يصححوا خطأ نظرية المحاكاة القديمة التي قرنت الفن بالكشف عن العالم الخارجي وتقليد قوانينه الأساسية في تصوير عام يركز علي الأساسي والجوهري " (١٧) ومن هنا كان تقدير الرومانسيين "أن إزالة نظرية

المحاكاة لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق العودة إلي العالم الداخلي للمبدع من حيث هو كائن متفرد ينطوي علي انفعالات لها أهميتها " (١٨)

لذلك فقد رأي الرومانسيون في الفرد المبدع إنسانا "متمردا علي القيود، متأبيا علي الجمود، لا ينصاع إلي تقاليد الجماعة ،وإنما إلي رغبته العارمة في الحضور، الرغبة التي تنبثق من أعماقه المتفردة، وكما أصبح الفن قرين هذا الفرد في حركته الخلاقة في الوجود وفي فلسفته التي تدور حول قيمة الحرية الفردية، اقترن الفن بأعماق هذا الفرد في تفردها وفي تفجرها الذي يتولد عنه الإبداع " (١٩) وبهذا أصبح الفن في جوهره "لا يعبر عن حقيقة خارجية وإنما يعبر عن حقيقة داخلية ،هي مجموعة من الانفعالات الفردية التي تفرض علي المبدع أن يعبر عنها،أي أن ينقلها من وجود داخلي إلي وجود خارجي هو العمل الفني الملموس "(٢٠) وبوسعنا أن نلتمس تجسيدا بارزا لإعلاء قيمة الفرد عند الرومانسيين في مقولة ،رالف إمرسون " الرومانسي الأمريكي حين كتب يقول :أنا –تلك الفكرة المسماة أنا – هي القالب الذي يصب فيه العالم كشمع منصهر "(٢١). وعلي الرغم من كون الرومانسية بوصفها مذهبا أدبيا لم تدم طويلا – قدر عمرها لدي النقاد بحوالي ثلاثة عقود– إلا أنها سرعان ما تركت مكانتها لأفكار نقدية متناثرة لا تكاد تكوّن مدرسة نقدية أو مذهبا متكاملا لكنها تلتقي جميعا في التشكك من الثقة الكاملة في العقل أو الذات خصوصا بعد ظهور آراء فردريك نيتشه في محدودية العقل واعتباره سجنا للإنسان (أو للفرد) وبالتالي لم تعد الذات الإنسانية قادرة علي إدراك العالم والتعرف عليه بمقدار ما أصبحت لغة الفرد هي الأساس في معرفته بالعالم ،وساعد علي تبديد صورة الفرد الكامل

ما وصلت إليه أبحاث (دارون)عن النشوء والارتقاء التي حطمت التصور القائل بكمال الإنسان الذي خلقه الله على صورته.

(٢)

وفي إطار البحث في الآثار الأدبية من حيث ما يدخل عليها في نشأ تها من تحولات تاريخية ،وما يطرأ عليها من عوامل ومؤثرات ،برز إلي الوجود ما يعرف بالنقد الماركسي وقد أدرج هذا النقد المبدع والنص والمتلقي معا ضمن منظور اجتماعي عام ،وقد أقامت نظرية النقد الماركسية تصورها بناء علي مفهومين أساسيين:

الأول: فكرة الأبنية التحتية والأبنية الفوقية ،حيث تتجسد الأولي في "حقائق الحياة المادية المتعينة المتمثلة في الوجود الفعلي الخارجي للمجتمعات وفي تجسيدها المادي في الجانب الاقتصادي والسياسي ونظم العلاقات الاجتماعية " (٢٢) بينما تنبثق الأبنية الفوقية من هذه الأبنية التحتية متمثلة "في القوانين والشرائع والأنظمة الاجتماعية ولعل الطبقة الأشد تبلورا ورهافة فيها وبعدا عن هذه البنية السفلي ولكن اعتمادا عليها في الآن ذاته هي الآداب والفنون " (٢٣)

والآخر: مفهوم الانعكاس الآلي وإذا كان المحكي عند اليونان هو الطبيعة فعند أصحاب هذه النظرية هو المجتمع.

ولما كانت البنية الفوقية تتشكل من الفن والقانون والسياسة والدين بتأثير قوي من البنية التحتية أو الإدراك الاجتماعي الواعي للعلاقات الاقتصادية

والصراع الطبقي فقد رأت النظرية استحالة دراسة الأعمال الأدبية والفنية بمعزل عن البنية التحتية للثقافة بحقائقها الاقتصادية والاجتماعية وبهذا الفهم فإنه "ليس لدارس الأدب إلا أن ينقل الأفكار من لغة الآثار الأدبية إلي لغة علم الاجتماع ، أو ليس عليه إلا أن يكشف عن الأفكار الاجتماعية والمذاهب العقائدية في النصوص الفنية " (٢٤) وقد خلصت النظرية الماركسية من خلال المفهومين السابقين إلي الاعتماد علي مبدأ "الحتمية التاريخية " وذلك بتصور التاريخ البشري باعتباره مراحل لابد من تواليها علي النمط الذي وضعته ،وقد تمثلت النظرية الماركسية في الإنتاج الفكري والأدبي طبقا لمحورين أساسيين :

الأول : أن الإنتاج الأدبي ينبثق في الأساس من الواقع المادي في المجتمع والحياة.

الآخر : ربط الإنتاج الأدبي والفني بحتمية تاريخية جبرية لا فكاك منها ،وذلك مؤداه أن الفنون تبدأ بطريقة نظرية انطباعية لتخضع للنظام الرأس مالي منتهية بالمستقبل الاشتراكي ،والفنون التي لا تتجه هذه الوجهة –من المنظور الاشتراكي – مضادة لحركة التاريخ فاقدة لمصداقيتها " (٢٥)

وربما وصلت الماركسية إلي ما وصلت إليه نتيجة للانبهار والتحول المدهش إلي العلمية في محاولة بناء مجتمع روسي حديث ومتطور ؛ لذلك جاءت الدعوة الصريحة إلي سيادة العقل والإيمان بقدرته علي الفحص الدقيق مع التخلص النهائي من ذاتية الرومانسية المفرطة في تمسكها المتفائل في إطلاق

حرية الفرد وتفجير طاقاته الإبداعية علي المستوي الفردي .جاءت الماركسية لتضحض هذا،مؤمنة بأن الإبداع ليس نتاجا فرديا بقدر ما هو إنتاج جمعي تتحكم فيه وتحدده بصورة جبرية مستويات البني التحتية اقتصادية أو اجتماعية خالقة المضمون الإبداعي الذي يفرض في النهاية شكلا مناسبا له علي حد قول ماركس المشهور : "ليس للشكل أية قيمة ما لم يكن شكلا لمضمون" ؛لذلك فإن المضمون عندهم يسبق الشكل ،وبناء عليه فإن اختلاف المضمون أو نمط الإنتاج يستتبعه بالضرورة الحتمية تغير في الشكل .

مما سبق نري أنه إذا كان المنهج التاريخي –وخصوصا في النظرية الماركسية – قد قدم تصورا لفكرة تاريخية الأدب ،وارتباطها بتطور المجتمعات، وتحولاتها طبقا لاختلافات عديدة منها البيئة والظروف والعصر فإن كل المناهج الاجتماعية –سواء علم اجتماع الأدب او واقعية جورج لوكاتش أو بنيوية لوسيان جولد مان –قد اتخذت من المنطلقات السابقة –بشكل أو بآخر–مرتكزات لأفكارها خصوصا عبر مفهومي : الزمان والمكان "إذ يشف المحور الزماني عن إمكانية أن يرتبط التغيير النوعي للأعمال الأدبية بالتحولات التي تحدث في الحقب التاريخية المختلفة ،وعبر اختلاف المكان –أيضا–إذ إن لكل مكان زمانه وتاريخه وظروفه " (٢٦) .

إن المنطلقات الأساسية للماركسية ظلت ممتدة حتى عند جورج لوكاتش الذي حاول أن يقلص فكرة الحتمية دون إهمالها فلم يخرج من الوقوع في أسرها لقد كتب يقول بأن الماركسية لا تقول بالموازاة الحتمية بين كل من التطور الفكري والاقتصادي متأثرا بما قاله إنجلز من كون الفلسفة قد قطعت أشواطا

واسعة من الرقي في فرنسا القرن الثامن عشر وفي ألمانيا القرن التاسع عشر من غير أن يكون هذان المجتمعان متطورين اقتصاديا أو اجتماعيا وقد ساقه ذلك إلي الاعتقاد النسبي باستقلالية الفن.

ومع ذلك فقد ظل لوكاتش يعتقد مع الماركسيين أن جوهر الفعالية في الإبداع الأدبي مرهون بتحولات الواقع الاقتصادي والاجتماعي ،ولقد رأى لوكاتش أن الإبداع الأدبي يمكن من الوعي بخصائص السياق التاريخي المعاصر له ،وبناء علي ذلك فقد "حلل العلاقة بين الأدب والمجتمع باعتبار الأدب انعكاسا وتمثيلا للحياة " (٢٧).

ويتخذ معني الانعكاس (reflection) بعدا عميقا لدى جورج لوكاتش لا يتوقف عند القشرة الخارجية للأثر الأدبي ،فهو يري علي سبيل المثال أن الرواية انعكاس للواقع "لا بمعني أنها تقتصر علي وصف المظهر السطحي للواقع،بل بمعني أنها تقدم انعكاسا أكثر صدقا وحيوية وفعالية للواقع فالانعكاس معناه "تشكيل بنية ذهنية " تصاغ في كلمات " (٢٨).

ومع كل ذلك فقد تناسي جورج لوكاتش –علي ما بينا سابقا–عند التطبيق ما كان ذهب إليه من أن للأثر الأدبي استقلالا نسبيا عن الاقتصاد والاجتماع فجعل المؤثرات تتدخل في الإبداع الأدبي من الواقع الاجتماعي نحو الظاهرة الأدبية. ومن الحق أن يقال " إن أبحاث لوكاتش الفكرية والنقدية هي التي أسست المنهج الاجتماعي الجدلي ،وإن مفهوم " الوعي الاجتماعي "في النص الأدبي ، والصفة أو الهوية الطبقية الملازمة له هو مفهوم لوكاتشي في الأساس " (٢٩).

ولقد جاء من بعد لوكاتش الناقد الروماني لوسيان جولدمان (lucien goldman) متأثرا بمذهب هيجل (hegel) الجدلي في الفن من ناحية وبأبحاث أستاذه الروحي لوكاتش في المجال الأدبي من ناحية أخري ، والدليل علي ذلك أنه بني تصوراته وأفكاره علي كثير من المفاهيم الأساسية التي جاءت عند لوكاتش من مثل : (البنية الدالة)،(الوحدة الشاملة)، (الوعي الممكن)، (التشيؤ) وهي مفاهيم كانت بمثابة البداية التي انطلق منها جولدمان مازجا بينها وبين غيرها من المفاهيم التي تعلمها من عالم النفس السويسري جان بياجيه المعروف بأبحاثه عن عمليات الفكر في مرحلة الطفولة " (٣٠).

وينطلق جولدمان في بنيويته التوليدية من فكرتين أساسيتين : الأولي أن العمل الإبداعي لايعبر عن الفرد بقدر تعبيره عن الوعي الطبقي للفئة الاجتماعية ،علي اعتبار أن وجهة نظر المبدع ورؤيته عملية معقدة يختزل فيها ضمير الجماعة ورؤيتها من خلال الوعي الجماعي والضمير الجمعي ، و الأخرى أن العمل الإبداعي يتسم بوجود أبنية دلالية كلية تختلف من عمل إلى آخر علي الرغم من إمكانية وجود تناظر بين بنية الوعي الجمعي من ناحية والبنية الدلالية من ناحية أخرى ، ولقد ترتب علي ذلك " أن نقطة الاتصال بين البنية الدلالية والوعي الجماعي الطبقي هي أهم الحلقات عند جولدمان والتي يطلق عليها مصطلح (رؤية العالم) فكل عمل أدبي يتضمن رؤية للعالم ليس العمل الأدبي المنفرد فحسب لكن الإنتاج الكلي للأديب ولعصر معين ،وعن طريق رؤية العالم

يمكننا أن نرى بشكل صاف كيفية تبلور العلامة الخلاقة بين الأعمال الأدبية من ناحية والوقائع الاجتماعية والخارجية من ناحية ثانية (٣١).

وإذا كانت أبحاث لوكاتش الفكرية والنقدية قد أسست المنهج الاجتماعي الجدلي فإن بوسعنا القول بأن جولدمان استطاع أن يطور هذه الاجتماعية الجدلية فيما عرف بالبنيوية التوليدية حيث جاءت أبحاثه مبرزة "خاصة التناسق في بنية العمل الأدبي بين عناصره ، ولتقيم من جهة ثانية مفهوم علاقة التناظر (homologie) بين بنية العمل الأدبي وبين البنية الذهنية – التي تكلم عنها لوكاتش–للفئة الاجتماعية التي يعيد الأديب تركيبها في عمله ، وبذلك دلت علي مكمن الملمح الفني الجمالي دون أن يكون ثمة من تناقض بين وجود هذا الملمح وهوية الوعي في النص الأدبي" (٣٢) .

وبذلك استطاع جولدمان أن يطور أفكار لوكاتش فيما يخص علاقة الأثر الأدبي بالسياق التاريخي الذي ينشأ فيه حين ذهب في مفهوم الانعكاس إلي أن الآثار الأدبية تعكس ظروفها التاريخية لا عكسا آليا وإنما علي سبيل التمثيل والمضارعة ؛ لذلك فإن الكتاب العظام الذين يمثلون عصورهم ، حسب، هم أولئك الذين يعبرون عن رؤية للعالم توافق أكثر ما يمكن أكبر نسبة من الوعي الطبقي (٣٣) .

وإذا كانت الإضافة الحقيقية التي قدمها هذا المنهج تتمثل في رفضه عزل النص وانغلاقه علي نفسه كما يؤكد جولدمان من خلال مبدأين :الأول ضرورة الكشف عن العلاقة الموجودة بين الفكر والواقع ، والآخر أن للفكر موقعه

الطبقي في المجتمع ، وهذا ما يجعل النص الأدبي نصا يحمل رؤية للعالم يتوجه النقد في تحليله للكشف عنها ؛وبذلك يصبح من مهمة النقد البحث عن هذه العلاقة بين النص والواقع الاجتماعي ، ثم تحديد الموقع الفكري الذي تنهض منه هذه العلاقة (٣٤) . وأيا ما كان الأمر فإنه إذا تمثلت إضافة هذا المنهج في عدم إغفاله للجانب الكيفي في دراسته للأعمال الأدبية " (٣٥) فإنه قد أخذت عليه بعض المآخذ لعل من أهمها ما يلي:

١- تعلقه بأحادية المعني وذلك حين اعتقد أصحابه أن لكل أثر أدبي معني واحدا يتعين علي الناقد الوصول إليه ونقله إلي لغة المفاهيم.

٢- لفظه للنصوص والآثار الأدبية الغامضة والطعن في قيمتها إذ عدها غير متناسقة البناء.

٣- أنه منهج يكشف عن شخصية القارئ وعن مواقفه الفكرية أكثر مما يكشف عن الأثر الأدبي ذاته.

٤- فقدانه القدرة علي التمييز بين الآثار الأدبية الجيدة والرديئة علي السواء ، الأمر الذي جعله يتناول أعمالا أدبية مشهورة فرضت نفسها علي مر العصور.